عرقوب يترب . . ويترب عرقوب

أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام : «وقال ابن الكلبي : من أمثالهم في هذا قولهم : مواعيد عرقوب.

قال : سمعت أبي يخبر بحديثه أنه كان رجل من العماليق يقال له : «عرقوب»، فأتاه أخ له يسأله شيئا، فقال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها.

فلما أطلعت أتاه للعدة فقال : دعها حتى تصير بلحًا.

فلما أبلحت أتاه فقال له : دعها حتى تصير زهوًا.

فلما أزهت قال له : دعها حتى تصير رطبًا.

فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمرًا.

فلما أتمرت عمد إليها عرقوب من الليل فجذها، ولم يعط أخاه منها شيئًا، فصار مثلاً في الخلف، وفيه يقول الأشجعي :

وعدت وكان الخلف منك سجية ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وبعضهم يرويه بأترب اسم موضع.

قال: أنشدني الأصمعي بيثرب»[1]

قال أبو عبدالرحمن: وذكر محقق الكتاب الدكتور عبدالمجيد قطامش في حاشية الأصل من كتاب أبي عبيد عن علي بن عبدالعزيز تلميذ أبي عبيد أن نص البيت:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيده إلا الأباطيل

والبيت لكعب بن زهير رضي الله عنه.

وعلى حاشية الأصل من إحدى نسخ كتاب أبي عبيد أيضًا: يروى بأترب وبيترب.

وحكى ابن قتيبة بأترب بفتح الراء وبالتاء المنقوطة بثنتين.

وحكى يعقوب أن يترب وبلاد بلدتان باليمامة.

وقال أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني بعد نقله لنص أبي عبيد: «ويروى بيثرب وهي مدينة الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، ويترب - بالتاء وفتح الراء - موضع قريب من اليمامة، وقال آخر:

وأكذب من عرقوب يترب لهجة وأبين شؤمًا في الحوائج من زحل»[2]

وقال الهمداني: «يترب مدينة بحضرموت نزلتها كندة، وكان بها أبو الخير ابن عمرو، وإياها عني الأعشى بقوله:

بسهام يترب أو سهام الوادي

ويقال: إن عرقوبًا صاحب المواعيد كان بها، وفيه يقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل»[3]

قال أبو عبدالرحمن: هـذا مسمى لا يزال يحمل اسمه إلى هذا اليوم باليمن، وهو مسمى آخر غير يترب اليمامة.

ونفترض الآن أننا لا نملك اليقين بعد هل بيت الأعشى في يترب حضرموت أو في يترب اليمامة؟

وإذا علم أي البلدين كان مشهوراً بصنع السهام علم أيهما المراد ببيت الأعشى.

وهذا هو سياق بيت الأعشى:

وأخو النساء متى يشأ يصرمنه ... ويكن أعداء بعيد وداد

ولقد أنال الوصل في متمنع ... صعب بناه الأولون مصاد[٤]

أنّى تذكر ودها وصفاءها ... سفهًا وأنت بصوّة الأثماد[٥]

فشباك باعجة فجنبي حائر ... وتحل شاطنة بدار إياد

منعت قياس الماسخية رأسه ... بسهام يترب أو سهام بَلاد[٦]

فالأعشى لا يورد يترب وبلاداً في سياق البلدان النجدية التي ذكرها، وإنما يذكرهما لأجل تفردهما بصنع السهام.

والماسخي من يصنع الأقواس التي ترمي بالسهام. . قال الزبيدي:

«والماسخي القواس، لمن يصطنع قوساً.

والماسخية: الأقواس، نسبت إلى ماسخة لقب قواس أزدي اسمه نبيشة بن الحارث أحد بني نصر بن الأزد . . قال الجعدي:

بعيس تعطف أعناقها ... كما عطف الماسخي القياسا

كذا قاله السهيلي في الروض[٧].

وقال أبو حنيفة: زعموا أن ماسخة رجل من الأزد . . أزد السراة.

والماسخية: القسي منسوبة إليه، لأنه أول من عمل بها.

وقال ابن الكلبي: هو أول من عمل القسي من العرب.

قال: والقواسون والنبالون من أهل السراة كثير لكثرة الشجر بالسراة. .

قالوا: فلما كثرت النسبة إليه وتقادم ذلك قيل لكل قواس: ماسخي.

وفي تسمية كل قواس ماسخيا قال الشماخ في وصف ناقته:

عنس مذكرة كأن ضلوعها أطرحناها الماسخي بيثرب[٨]

ونقل السهيلي عن أبي حنيفة في كتاب النبات: وقد تنسب القسي أيضا إلى زارة، وهي امرأة ماسخة. قال صخر الغي:

سمحية[٩] من قسي زارة (م) حمرا هتوف عدادها غرد[١٠]

قال أبو عبدالرحمن: والأعشى يذكر بُعْد دار الحبيبة، وأنه يحمي غول الطريق إليها بالسهام، فذكر هذين البلدين لكون سهامهما جيدة لا من أجل أنهما في مساره.

إلا أن المعجميين نصوا على أن البلدتين ذواتي السهام من بلدان اليمامة. .

قال ياقوت: «بلاد بوزن قطام وحذام . . ورواه بعضهم بكسر الباء؛ بلد قريب من حجر اليمامة. . قال أبو عبيدة: أجود السهام التي وصفها العرب في الجاهلية سهام بلاد وسهام يثرب. . بلدان عند اليمامة، وأنشد للأعشى الشعر الذي مر ذكره.

وقال الحفصي: بلاد محارث باليمامة.

وقال عمارة:

وغـــداة بطن بلاد كـــان بيـــوتكم ببـــلاد أنجـــد منجـــدون وغـــاروا
وبذي الأراكـــة منكم قـــد غـــادروا جيـفـاً كـأن رؤوسـهـا الفـخـار»[11]

قال أبو عبدالرحمن: إذن يترب حضرموت ليست هي ذات السهام، وإذن فبيت الأعشى في يترب اليمامة.

وقال البكري عن يترب: يترب بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة مفتوحة وباء معجمة بواحدة.

قال قطرب: هي قرية بين اليمامة والوشم.

وقال القاسم بن سلام: يقال: يترب وأترب بالهمزة[12]. . قال الجعدي:

وقلن لحى الله رب العـــبـــاد جنوب الســـخـــال إلى يـتـــرب
لقـــد شط حي بجـــزع الأغـر (م) حـــيًـــا تربع بالشربب

والسخال: بالعالية.

ويقال: يترب: أرض بني سعد.

قال النمر بن تولب العكلي يرثي أخاه الحارث بن تولب:

لا زال صـــوب من ربيع وصـــيف يجـود على حسي الغميم فيترب
ووالله مـا أسـقي الديار لحـبـهـا ولكنني أسـقـيك حـار بن تولب

وكان أبو عبيدة ينشد قول علقمة[13]:

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيترب

وقال: بيثرب خطأ.

وأنشد غيره:

يا دار سلمى عن يمين يترب بجُبجبٍ أو عن يمين جُبْجُبِ

جبجب: ماء بيترب

وقال ابن دريد: اختلفوا في عرقوب، فقيل: هو من الأوس، فيصح على هذا أن يكون بيثرب.

وقيل: هو من العماليق، فعلى هذا القول إنما يكون بيترب لأن العمالقة كانت من اليمامة إلى وبار، ويترب هناك.

قال: وكانت العماليق أيضًا بالمدينة.

هكذا قال في باب بجبج.

وقال في باب بتر[١٤]: عرقوب بن معبد، ويقال: مغيد من بني عبشمس بن سعد.

قال: ويقال: يترب: أرض بني سعد.

وقال غيره: عرقوب: جبل مكلل بالسحاب أبدًا لا يمطر»[١٥].

قال أبو عبدالرحمن: في هذا الكلام أقدم نص في تحديد يترب وهو لقطرب[١٦].

وجنوب السخال شكلت رسمًا بضم الجيم.

وتسمية كل أرض بني سعد بيترب قول لا يُعَوَّل عليه.

وربط الجعدي يترب بالسخال، وربطها النمر بن تولب بحسي الغميم، وربطه الثالث بجبجب.

وضبط ياقوت: يترب: بالفتح ثم السكون، وراء مفتوحة أيضاً[١٧].

وذكر ياقوت يثوب ـ بالواو ـ فقال: «يثوب: آخره باء: موضع بين اليمامة والوشم، وليس بيثرب (وضبطها قلميًا بالثاء المثلثة) بالراء . . هو غيره فلا تظنه تصحيفه»[١٨]

وقال البكري عن عرقوب: «وفيه يقول الأشجعي:

وعدت وكان الخلف منك سجية ... مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

هكذا ثبتت الرواية عن أبي عبيد بيثرب يعني المدينة، وقد تقدم له أن المثل لرجل من العماليق، ولم يكن قط أحد من العماليق بيثرب ولا سكنها، وإنما هوبيترب ـ بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها وبفتح الراء ـ . . وهكذا أنشد أبو عبيدة معمر بن المثنى المذكور، وهو لعلقمة بيترب، وقال: من أنشده بيثرب فقد أخطأ، والعماليق إنما كانت من اليمامة إلى وبار، ويترب هناك، وبيت علقمة لم يأت على هذا اللفظ، وصلة بيت علقمة وصواب إنشاده:

وما أنت أم ما ذكرها ربعية ... تحل بإير أو بأكناف شربب

أطعت الوشاة والمشاة بصرمها ... فقد أنهجت حبالها للتغضب

وقد وعدتك موعداً لو وفت به ... كموعد عرقوب أخاه بيثرب

هكذا رواه الأصمعي وابن الأعرابي وقالا: عرقوب رجل من الأوس أو من الخزرج.

وقال قطرب: يترب قرية بين اليمامة والوشم . . ثم ذكر قول الجعدي:

وقلن لحا الله رب العباد . . إلخ.

ويقال لهذه القرية أيضًا: أترب بالهمزة.

ونقل عن ابن دريد قوله: اختلفوا في عرقوب فقيل: هو من الأوس فيصح على هذا أن يكون بيثرب.

وقيل: إنه من العماليق، فعلى هذا القول يكون بيترب.

وقال: عرقوب بن معيذ - ويقال ابن معبد - من بني عبشمس بن سعد.

ويقال: يترب أرض ببني سعد[١٩].

وذكر قول الراجز:

يا دار سلمى بجنوب يتـــرب بجـبـجب وعن يمين جـبـجب

قال ابن دريد: وكان أبو عبيدة ينشد بيترب قول جبيهاء الأشجعي - واسمه يزيد بن عبيد:

وعـدت وكـان الخلف منك سـجـيـة مـواعـيـد عـرقـوب أخـاه بيـتـرب[٢٠]

وقال البكري: ينقل عن غير ابن دريد قوله: «وعرقوب جبل مكلل بالسحاب أبدًا، ولا يمطر، فضرب به المثل في الخلف»[٢١]

وذكر نشوان الحميري تيرب بالتاء المثناة الفوقية، ثم الياء المثناة التحتية[٢٢].

بيد أن المطبعة كتبتها يترب بالياء الثمناة التحتية أولا، وهو تطبيع، لأن نشوان الحميري ذكرها في باب فيعل، ولم يذكرها في باب يفعل.

وفي نسب بني عبشمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم ذكر الإمام أبو محمد ابن حزم عرقوب بن صخر بن معبد بن أسعد بن شعيبة بن خوات بن عبشمس . . وقال: الذي يقال فيه: مواعد عرقوب[٢٣] .

وقال البغدادي: «وقيل: موضع في بلاد بني سعد بالسودة. وقيل اسم مكان قريب من أذرعات . . حكاه بعضهم»[٢٤] .

وقال: «يثوب موضع بين اليمامة والوشم وهو مضارع ثاب»[٢٥] .

وذكر الثعالبي قولاً بأن عرقوبًا من خيبر، ونسب إلى الشماخ البيت:

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيترب[٢٦]

وأورد الأصبهاني هذا البيت:

وأكذب من عرقوب يثرب لهجة وأحضر شؤما في الكواكب من زحل[٢٧]

وقد ضبطت ضبطًا قلميًا بالثاء المثلثة.

وقال الأصفهاني: «وقال بعض أصحاب المعاني: معنى قول العرب: مواعيد عرقوب أي مواعيد فيها خلف. . لا أنهم يريدون رجلاً بعينه من قول العرب: جاءنا بأمر فيه عرقوب: أي التواء[٢٨] .

وأورد البكري قول النمر بن تولب العكلي يرثي أخاه الحارث:

لازال صوب من ربيع وصيف يجود على حسي الغميم فيترب
ووالله ما أسقي الديار لحبها ولكنني أسقيك حار بن تولب[٢٩]

وقال: جبجب ماء بيترب[٣٠] .

وقال: أترب قرية باليمامة[٣١].

وقال الزبيـــدي نقلاً عن البغدادي: «وقيل موضع أو ماء في بلاد بني سعد بالسواد»[٣٢].

وقال ابن فارس: «أترب إذا استغنى كأنه صار له من المال بقدر التراب»[٣٣].

قال أبو عبدالرحمن: تلخص من أقوال الأدباء والأخباريين واللغويين تسعة احتمالات:

١ - الاحتمال الأول: أنه من يهود المدينة المنورة.

٢ - الاحتمال الثاني: أنه من الأوس.

٣ - الاحتمال الثالث: أنه من خيبر.

وهذه الاحتمالات الثلاثة على أساس أنه من يثرب بالثاء المثلثة والراء المكسورة.

٤ - والاحتمال الرابع: أنه من أهل حضرموت كما في زعمِ مُمَرِّضٍ نَقَله الهمداني.

٥ - والاحتمال الخامس: أنه من عبشمس من بني سعد.

٦ - والاحتمال السادس: أنه من العماليق، وهذان الاحتمالان الأخيران على أساس أنه من يترب بالتاء المثناة والراء المفتوحة.

٧ - والاحتمال السابع: أنه عرقوبا ليس رجلا بعينه، وإنما المراد أمرا فيه التواء.

٨ - والاحتمال الثامن: أن عرقوبًا ليس رجلاً، وإنما هو جبل مكلل بالسحاب أبدًا، وليس يمطر أبدًا، فصار مثلاً في إخلاف الوعد.

٩ - الاحتمال التاسع: أنه صفة لأى رجل يعدك بشيء ثم لا يأتيك به فكان آخر عهدك به رؤيتك لعرقوبه.

والعامة في وسط نجد لا تزال إلى هذا اليوم تقول: أعطاني عرقوبه ومشى[٣٤].

قال أبو عبدالرحمن : الصحيح من هذه الاحتمالات الاحتمال الخامس وهو أن عرقوبًا رجل، وأنه عبشمي سعدي تميمي، والبرهان على ذلك من أمور :

أولها : ثبوت نسب عرقوب في بني سعد لدى النسابين.

وثانيها : أن بني سعد يدَّعونه، فهم مؤتمنون فيه، ولا ظَّنه لهم في ادعائة وهو كذوب.

وثالثها : أن المثل ارتبط برجل ونخلة مما يثبت أن عرقوبًا رجل.

ورابعها : أن الشعر ورد فيه لفظ : أخاه بيثرب، فهذه صفة رجل يعد أخاه.

وخامسها : أن شواهد الشعر المروية عن عرقوب ويترب تؤكد أن يترب بلدة نجدية في بلاد بني سعد وليست بلدة حجازية.

والبلدة النجدية بالتاء المثناة والراء المفتوحة، وإذًا فلا علاقة ليترب باليهود والأوس وأهل خيبر.

وسادسها : كون عرقوب من العماليق مجرد احتمال لكون العماليق سكنوا الديار.

قال أبو عبدالرحمن : هذا احتمال مرسل زال باحتمال متعين، وهو وجود نسب عرقوب في بني سعد، وكون بني سعد ورثوا تلك الديار.

وسابعها : أن نسبة عرقوب إلى حضرموت مجرد احتمال عزاه الهمداني إلى مجهول، ويرده الاحتمال المتعين المذكور آنفا، وهو أن عرقوبًا معروف النسب في بني سعد.

وثامنها : أن الأمر الموصوف بأنه عرقوب لالتوائه لا يوصف بأن له مواعيد.

مع العلم أن وصف الأمر الملتوي بالعرقوب ليس من مأثور العربية.

وتاسعها : أن الجبل المسمى عرقوبًا المكلل بالسحاب أبدًا لا يعلم أحد من خلق الله إلى هذه اللحظة في أي بقعة يوجد؟!.

قال أبو عبدالرحمن: وورد للشماخ أيضًا قوله:

أواعدتني ما لا أحاول نفعه مواعيد عرقوب أخاه بيثرب
وواعدتني عادية بين جولها وبين رجاها نصف شأو مغرب
تميل كما مالت على أخواتها خرير عذارى في خباء مطنب

قال أبو عبدالرحمن: فرغت من تحقيق أن عرقوبًا سعدي، وأن بلاده يمامية، وأنها يترب بالتاء المثناة الساكنة والراء المفتوحة.

والآن نحقق موقع بلده يترب، فمما ورد في الشعر قول الراعي النميري:

أو رعلة من قطا فيحان حلأها عن ماء يثربة الشباك والرصد[٣٥]

هكذا وردت يثرب في إحدى الروايات، وفيحان في بلاد بني سعد، وهو واد في الحجرة شمال الدهناء يوالي بلاد بني بكر بعد بلاد بني تميم.

وآخر البيت عن الصياد وشباكه (الحبالة).

والمحقق أن الوارد أثبرة، ويثبرة على إبدال الهمزة ياء.

فربما أريد اسم مكان بعينه، وربما أريد الوصف.

قال الزبيدي: «والثبرة بفتحٍ فسكونٍ: الأرض السهلة، وقيل: أرض ذات حجارة بيض.

وقال أبو حنيفة: هي حجارة بيض تقوَّمُ ويبنى بها، ولم يقل: إنها أرض ذات حجارة.

والثبرة: تراب شبيه بالنورة يكون بين ظهري الأرض، فإذا بلغ عرق النخلة إليه وقف يقال: لقيت عروق النخلة ثبرة فردتها.

والثبرة: الحفرة في الأرض يجتمع فيها الماء.

وثبرة: واد بديار ضبة.. وقيل: في أرض بني تميم قريب من طويلع لبني مناف ابن دارم، أو لبني مالك بن حنظلة على طريق الحاج إذا أخذوا على المنكدر»[٣٦].

وقال ابن لجأ التيمي يهاجي جريراً:

وكيف طلاب المردفات عشية وقد جاوز الشيخ الغميم ويثربا[٣٧]

وقال ابن لجأ أيضًا يهاجي جريرًا أيضًا:

ألم أترك شر الناس عبداً بيثرب حين شاهدت الوفود[٣٨]

قال أبو عبدالرحمن: كان جرير وابن لجأ يتهاجيان بالمدينة المنورة، فيثرب هاهنا هي المدينة المنورة.

أما في البيت الأول فقد اقترنت يثرب أو يترب بالغميم، وحول المدينة المنورة غميم[٣٩] فيكون المراد يثرب الثاء المثلثة.

وفي اليمامة غميم قرب يترب بالتاء المثناة فتكون هي المرادة.

وفي بيتي الجعدي قرنت يترب بجنوب السخال وذكر بعدها جزع الأغر والشربب.

وقرنها النمر بن تولب العكلي بحسي الغميم.

وذكر شاعرا ^خر دار حبيبته في جبجب، أو عن يمين جبجب، أو عن يمين يترب.

أما شعر علقمة فلم يذكر يترب في سياق بلداني، وإنما أراد ضرب المثل بعرقوب.

وأما شعر سلامة بن جندل السعدي فكان فخراً بيوم جدود . . قال:

ومن كان لا تعتد أيامه له ... فأيامنا عنا تُجَلِّي وتعرب

ألا هل أتى أفناء خندق كلها ... وعيلان إذا ضم الخميسين يترب

جعلنا لهم ما بين كتلة روحة ... إلى حيث أوفى صَّوتيه مثقَّب

غداة تركنا في الغبار ابن جحدر ... صريعا وأطراف العوالي تصبب

وأفلت منا الحوفزان كأنه ... برهوة قرن أفلت الخيل أعضب

غداة رغام حين ينجو بطعنة ... سؤوق المنايا قد تزل وتعطب[٤٠]

قال أبو عبدالرحمن: والأبيات عن يوم جدود، ولا بد من سياق قصته وإن طال، لأنه يفتح لنا آفاقًا عن علاقة جدود البعيدة[٤١].

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: وأما يوم جدود فإن الحوفزان (وهو الحارث بن شريك بن عمرو الصلب بن قيس بن شراحيل بن مرة بن همام الشيباني) أغار على بني تميم هو وأبجر ابن جابر العجلي. . خرجا متساندين يريدان الغارة على بني تميم، فمرا ببني يربوع وهم بجدود، فلما رأوهما نهدوا إليهما، وحالوا بينهما وبين الماء، وأرادوا قتالهما، فقال لهم الحوفزان: والله ما إياكم أردت، ولا لكم سموت، وإنما أردت بني سعد بن زيد مناة، فهل لكم في خمسمائة جلة وفضل ما معنا، ولكم الله أنا لا نروع حنظليًا ولا نقاتله، وخلوا بيننا وبين بني سعد.

فخلوا له وجهه، وصالحوه ثلاث سنين، وأخذوا منه جلال التمر.

فمضى إلى بني سعد، فأغار على بني ربيع بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد، فأصاب نسوة وهم خلوف، وأصاب إبلا، وسبى فيهن الزرقاء من بني ربيع بن الحارث، فأعجب بها وأعجبت به وكانت خرقاء، فلم يتمالك أن وقع بها.

فأتى الصريخ بني سعد، فركب قيس بن عاصم في بني سعد، فأدركوه وهو قائل برغام والعقاد [٤٢] وقد أمن الطلب في نفسه، وذلك في يوم شديد الحر، فزعموا أن سنان بن سمي المنقري أتاهم من أمامهم، فقالوا: من الرجل؟

قال: من القوم؟

فلم يزالوا حتى عاقدهم ألا يكتم بعضهم بعضًا شيئًا، فقال: من أنتم؟

قال: أنا الحوفزان، وهذه بنو ربيع معي وقد احتويتها، فمن أنت؟

قال: أنا سنان بن سمي المنقري في الجيش، وفي الحي.

فأتى أصحابه، فأخبرهم الخبر، فأكبوا عليهم الخيل كبًا، فاقتتلوا قتالاً شديدًا.

ثم إن بكر بن وائل انهزمت، وأوجعوهم قتلاً وأسرًا، واستنقذوا النسوة والنعم، وقتلت قتلى كثيرة.

واتبع قيس بن عاصم الحوفزان (والحوفزان على فرس له، وأردف الزرقاء خلفه، وهو على فرسه الزَّبد، وعقد شعرها على صدره، ونجا بها، فإذا استوت بهما الأرض لحقه قيس، وإذا وقعا في هبوط وصعود سبقه الحوفزان بقوة فرسه وسنه) فلما خشي أن يفوته قال: استأسر يا حارث.

قال الحوفزان: ما شاء الزبد!.

ثم زجر فرسه وقال: اليوم أبلو فرسي وجدي.

ويروى: اليوم أبلو حلبي وحشدي.

قال: استأسر يا حارث خير أسير.

فيقول الحارث: شر أسير.

فلما رأى قيس أن فرسه لا تلحقه نادى الزرقاء، فقال: ميلي به يا جَعَار.

فلما سمعه الحوفزان دفعها بمرفقه، وجز قرونها بسيفه.

فلما خشي قيس أن يفوته زرقه بالرمح زرقة هجمت على جوفه، وأفلت بها، وقد حفزه عن سرجه، فسمي الحوفزان.

وزعموا أن الحوفزان انتقضت به طعنته من العام المقبل، فمات منها.

فقال سوار بن حيان المنقري يفخر على رجل من بكر بن وائل:

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة سقته نجيعًا من دم الجوف أشكلا

والتقى مالك بن مسروق[٤٣] الربيعي يومئذ، وشهاب بن جحدر أخو قيس ابن ثعلبة وجد المسامعة، وهو أحد بني قيس بن ثعلبة، فقال مالك لشهاب: من أنت؟

قال:

أنا شهاب بن جحدر أطعنهم عند الكبر
تحت العجاج الأكدر

ومعه العدل رجل من قومه، فقال مالك مجيبًا له:

أنا مالك بن غيلان[٤٤] معي سنان حران
وإنما جئت الآن أقسم لا نؤيان
حتى يؤوب العدلان

ثم حمل على شهاب فقتله، ثم أعاد [على][45] العدل فقتله، وقال قيس بن عاصم في ذلك:

جزى الله يربوعًا بأسوء سعيها ... إذا ذكرت في النائبات أمورها
ويوم جدود قد فضحتم أباكمُ ... وسالمتمُ والخيل تدمي نحورها
فأصبحتمُ والله يفعل ذاكمُ ... كمهنوءة جرباء أبرز كورها
وأصبحتمُ والله يفعل ذاكم ... كموؤدة لم يبق إلا زفيرها
وأصبحتُ وغلاً في تميم وأصبحتْ ... عظامًا مساعيها سواك ودورها

ويروى: وأصبحت معادتها تجبي سواك وخيرها.
ويروى معادتها تجبى:

أفخراً على المولى إذا ما بطنتمُ ... ولؤمًا إذا ما الحرب شب سعيرها

ويروى: إذا ما الحرب تغلي قدورها.

ستخطم سعد والرباب أنوفكم ... كما غاب في أنف القضيب جريرها

ويروى غاظ بدل غاب بمعنى دخل. . والقضيب: الناقة التي لم تُرض . . وتروى: الظؤور.

أتاني وعيد الحوفزان ودونه ... من الأرض صحراوات فلج وقورها
أقم بسبيل الحي إن كنت صادقًا ... إذا حشدت سعد وجاش نصيرها

عصمنا تميمًا في الأمور فأصبحت ... يلوذ بنا نو مالها وفقيرها
ويوم جواثا والنباج وتيتل ... منعنا ربيعًا أن تباح ثغورها
وغركم من رهطكم كل مربع ... جوابيٌ جهنام يمد نحيرها

قال: وجهنام أخو هريرة الذي كان الأعشى يشبب بها، وهو من بني قيس بن ثعلبة:

تساقط أفلاق الحصى في نحوركم ... بصحن العراق فاستبننتم نحورها
وهرت بنو يربوع إذ هشها الوغى ... هرير كلاب أوجعتها أيورها

وقال مالك بن نويرة اليربوعي يرد على قيس بن مالك:

سأسأل من لاقى فوارس منقر ... رقاب إماء كيف كان نكيرها
وكنتم بغاثًا إذ لقيتم ندادكم ... من القوم ضانًا لابن كور عشورها
فهذا أوان القدع بيني وبينكم ... كوادن جند نقلتها أيورها
مجوسية كعب بن سعد وينتهي ... إلى بيت قيس غدرها وفجورها

وأسر الأهتم بن سمي حمران بن عبد عمرو، وأسر المنذر بن مشحب النقري أحد بني جرول عوف بن النعمان الشيباني، وأسر فدكي بن أعبد أبجر بن جابر».

قال أبو عبدالرحمن: ولما ذكر أبو عبيدة بائية سلامة بن جندل قال:

«وقال سلامة ابن جندل قال:

فسائل بسعدي في خندف ... وقيس وعنك تبيانها
وإن تسأل الحي من وائل ... تنبئك عجل وشيبانها
بوادي جدود وقد غودرت ... بضيق السنابك أعطانها
بأرعن كالطود من وائل ... يؤم الثغور ويعتانها
تكاد له الأرض من رزّه ... إذا سار ترجف أركانها
قدامس يقدمها الحوفزان ... وأبجر تخفق عقبانها
وجثام إذ سار في قومه ... سفاهًا إلينا وحمرانها
بمشهورة جربت قبلهم ... يوقَّد في الحرب شبانها
فألفوا لنا كل مجدولة ... تصان لداود أبدانها
وكل شديد مجال الذنوب ... شديد المهتن عرانها
وتغلب إذ حربها لاقح ... تشب وتسعر نيرانها
غداة أتانا صريخ الرباب ... ولم يك يصلح خذلانها
صريخ لضبة يوم الهذيل ... وضبة تردف نسوانها
تداركهم لضبة يوم الهذيل ... خناديد تشعل أعطانها
بأسد من الفزر غلب الرقاب ... مصاليت لم يخش إدهانها
فحط الربيع فتى شرمخ ... أخوذ الرغائب منانها
فقاظ وفي الجيد مشهورة ... يغنيه في الغل إرنانها

وقال قيس بن مقلد لصريخ بني ربيع :

أمنكم علينا منذر لعدونا ... وداع بنا يوم الهياج منددد؟
فقلت ولم أسرر بذاك ولم أسأ ... أسعد بن زيد كيف هذا التودد؟

وقال الأهتم بن سمي المنقري في أسره حمران بن عمرو:

تمطت بحمران المنية بعدما حشاه سنان من شراعة أزرق

دعا يا لقيس واعتزيت لمنقر وقد كنت إذ ا لاقيت في الخيل أصدق

ثم إن الأهتم جز ناصية حمران ومن عليه[٤٦].

قال أبو عبدالرحمن: انتقلت الحرب من جدود في أقصى الشمال إلى القاعة (النقرة) في أقصى الجنوب الشرقي في الجانب الشمالي من سودة بني سعد بالمنطقة الشرقية[٤٧].

ثم انتقلت الحرب إلى المقاد أسفل الصمان قرب الوريعة والدو (الدبدبة)، واحتمل الشيخ حمد أن يكون المعيقل هو المقاد في منطقة قرية السفلى والعليا[٤٨].

ورهوة التي ذكرها سلامة بالصمان، وهي أم أوعال.

ورغام لا يراد به اسم الرغام المشهور بالوشم، وإنما هو وصف لرمل دقيق.

وطراد هذه الحرب حدده سلامة بأنه بين كتلة ومثقب بتشديد القاف.

وجاء في شرح الديوان أن كتلة رملة بين بئر بني سحيم وجبل خنزير، وأن مثقب باليمامة في ديار بكر.

وعند الحازمي أنه بفتح الميم.

والجيش في يترب، فأين يترب من كتلة ومثقب؟

إن تحديد كتلة أمر ضروري.

ويلزم أيضًا تحديد الغميم وحسيه، والسخال، والأغر، والشربب، وجبجب، وذلك بعد استيفاء ما قيل عن يترب.

قال ياقوت: يترب بالفتح ثم السكون وراء مفتوحة أيضًا. . قيل: قرية باليمامة عند جبل وشم. . وقيل: اسم موضع في بلاد بني سعد بالسودة، وينشد لعبيد بن الأبرص:

في كل وادٍ بين يترب (م) والقصور إلى اليمامة
عانٍ يساق به وصوت (م) محرق وزقاءُ هامة[٤٩]

قال أبو عبدالرحمن: من الصحيح أن يترب في بلاد بني سعد التميميين، وذلك عن يمين طويق وأنت مشمل، وإنما الوهم جعل يترب في السودة.

وسبب ذلك أن عرقوبًا اليتربي سعدي عند الجمهور، وأن الشاعر ربط يترب بجبجب، وجبجب في السودة من ديار سعد، وأن الأعشى ذكر الشباك ويترب، والشباك منهل في الستار (سودة بني سعد)، فشرد الذهن إلى تعيين يترب في سودة بني سعد، وغفل الذهن عن ديار بني سعد في العتك.

قال أبو عبدالرحمن: والجبجوب منهل أسفل السودة ـ بالسين المضمومة المشددة وسكون الواو ـ، وهي أغوار أشجار، ومستنقعات تمتد من شمال الأحساء إلى ما وراء رأس الخفجي شمالاً، ويفصلها عن البحر الأنقاء البيضاء.

وقد نص الأزهري على أن الستار الأغبر والستار الجابري واديان يقال لهما السودة[٥٠].

قال أبو عبدالرحمن: إلا أن ديار بني سعد ليست وقفًا على السودة، بل تمتد من يبرين وواحات ورمال الجانب الغربي الشمالي من الربع الخالي إلى كاظمة شمال الكويت.

قال لغدة الأصفهاني: «وأما سعد بن زيد مناة فأقصاها يبرين، وهو بحذاء عمان ينزله منهم بنو عوف بن سعد، وناس من بني عوف بن كعب، وأخلاط سعد، ثم هم متصلون إلى الأحساء.

والأحساء من هجر على ميلين ينزلها أخلاطهم، وبها سيدهم وعاملهم إبراهيم بن موسى.

فإذا خرجت من الأحساء أتيت الأجواف، وهي قرى ومياه ثم تصير إلى بطن غِرّ»، وهو بطن فيه مياه وقرى وعيون فيها ماءَة يقال لها ثبات وماءَة يقال لها كِنْهِل . . قال الشاعر:

تجانف عن شرائع بطن غُرّ ... وحدثه عن السيف الكُرَاعُ

إن لها بكِنْهِلِ الكناهِلِ ... حوضًا يَرُدُنْ رُكَبَ النواهلِ

ثم تخرج من بطن غِرّ فتقع في السَّتَارِ.

وفيه لهم أكثر من ماءة قرية لأفناء سعد، ولامرىء القيس بن زيد.

ومن قراها ثاجُ، وبها سوق. . قال ذو الرمة:

نحاها لِثَاجٍ نَحْيَةٌ ثم إنه ... تَوَخَّى بها العينين عيني متالع

وعينا مُتَالِعٍ منها، وقرية يقال لها ملج، وقرية يقال لها نطاع. . قال العجاج:

إن تَكُ دهنا ظعنت عن دارها ... عامدة لِمَلْجَ أو سِتَارِها

فقد تصيد القلب باحورارها ... وكفَلٍ ينصار بانصيارها

فإذا خرجت من الستار وقعت في أرض لهم يقال لها القاعة، فيها مياه كثيرة، وماء يقال له العتيد، وفيه يقول الشاعر:

يا حبذا عُتَيدٌ وماؤه فكل ماءٍ حوله فداؤه

وماء يقال له الطريفة لبني مالك بن سعد اقتتلوا فيها هم وبنو عوف بن كعب، فصارت لبني مالك وبها حصن يغزوهم فيها الكدل (؟).

ولبني مالك القُصيبَةُ منزل العجاج وولده.

ثم لبني مالك من ناحية طويْلعٍ قريتان يقال لهما ثَيتَلُ، والنِّباجُ.

ولهم بناحية اليمامة قرى كثيرة.

ولهم وراء الدهناء ماءان عظيمان يقال لهما وَسيعٌ، ودُحْرُضُ.

وفيها يقول الشاعر:

شربت بماء الدحرضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الديلم

ولهم وراء الدهنا بجنب حفر سعد ماء يقال له البئر.

قال الراجز:

بالبئر والله ذئاب والحفر

ولهم ببطن السِّيدان الحمانية وهي ماءَة لبني حِمَّان، والربيعية لبني ربيع بن الحارث.

وهم مختلطون بالصعاب (والصعاب أسفل من الدو والسيدان) هم وبنو الحرماز بن مالك في مياه كثيرة، منها مسلحة، والوفراء، وكاظمة.

وهم متصلون إلى سفوان من يبرين، وذلك أكثر من مسيرة شهر.

وعرضهم من البحرين إلى الدهناء، ووراء الدهناء، عشر وزيادة»[٥١].

قال أبو عبدالرحمن: المهم من هذا النص امتداد بلادهم، ولا فراغ لي في هذه المناسبة لتحقيق تلك الأعلام المكانية ضبطاً وموقعًا.

قال أبو عبدالرحمن: وديارهم على امتداد طويق دون صفحه الشرقي حددها لغدة بقوله: «فإذا خرجت من البالدية وردت ماء يقال له الغميم لبني سعد إن وردته، وإلاطويته حتى تجزع بطن واد يقال له العتك وهو لبني سعد، وهو واد يجيء أعلاه من ناحية الفقء ثم يشق حتى ينتهي إلى ناحية الغميم، وليس لسعد عن يمينه ولا عن يساره شيء إنما لهم بطن الوادي»[٥٢].

وأما بلادهم غرب طويق فقد قال عنها لغدة: «وقال أبو المُسَلَّمِ: الغزير لبني سعد.

فتأخذ على رملة يقال لها الوركة، وهي رملة يزعمون أن طرفيها في البحر، فيها قشير ونمير وغيرهم، فإذا جزعتها وردت أهوي، وأضيمر ماءان لبني حمان»[٥٣].

قال أبو عبدالرحمن: أما أبيات عبيد بن الأبرص فقد وردت في استعطافه الملك حجر الكندي إذ أذل بني أسد بالضرب حتى سموا عبيد العصا، وهذا نص القصيدة:

يا عين فابكي ما بني أسد فهم أهل الندامة
أهل القباب الحمر (م) والنعم المؤبَّل والمدامة[٥٤]
ونوي الجياد الجرد (م) والأسل المثقفة المقامة
حِلاً أبيت اللعن (م) حلاً إن ما قلت ائمة[٥٥]

في كل واد بين (م) يثرب فالقصور إلى اليمامة
تطريب عان أو صياح (م) محرق أو صوت هامة
ومنعتهم نجداً فقد حلوا على وجل تهامة
برمت بنو أسد كما برمت ببيضتها الحمامة
جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامة
إما تركت تركت (م) عفواً أو قتلت فلا ملامة
أنت المليك عليهم وهم العبيد إلى القيامة
ذلوا لسوطك مثل ما ذل الأشيقر ذو الخزامة[٥٦]

فعبيد لا يريد سياقًا بلدانيًا متقاربًا، وإنما يريد تهويل شأن الـ محرق من لخم، فهو يفحج نفوذهم، وامتداد سطوتهم من قصور الحيرة إلى اليمامة في نجد إلى يثرب بالمثلثة في الحجاز.

قال أبو عبدالرحمن: وبإيجاز فيترب قرب الغميم، وهو الملتهبة التي يدك فيها وادي العتك، والله المستعان.

الهوامش

١ - الأمثال لأبي عبيد ص ٨٧.
٢ - مجمع الأمثال ٢/ ٣١١.
٣ - صفة جزيرة العرب ص ١٧٣ - ١٧٤، ونقل ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٤٩٢ قول الهمداني عن عرقوب: والصحيح أنه من قدماء يهود يثرب.
قال أبو عبدالرحمن: فلعل ياقوتا ينقل عن نسخة أخرى أكمل.
٤ - مصاد: يصعب الوصول إليه.
٥ - صوة الأثماد: أرض غليظة ذات ماء قليل.

٦ - ديوان الأعشى ص ١١٧ تحقيق حنا الحتي، والبيت الأخير يأتي شرحه إن شاء الله بعد أسطر.

وفي معجم ما استعجم ٣/ ٧٧٧ - ٧٧٨: فشباك باعجة فجنبي حامر. . وصوة الأجواد، وصوة الأثماد. . والصوة العلم.

٧ - الروض الأنف ٣/ ٣٠٤ - ٣٠٥ والقافية: القيانا [محقق التاج/ طبعة الباز].

٨ - ديوان الشماخ ص ٢٧ [ابن عقيل].

٩ - في الروض الأنف: سمحة.

١٠ - تاج العروس ٤/ ٣١٣.

١١ - معجم البلدان ١/ ٥٦٤. . وانظر معجم ما استعجم ١/ ٢٧، ومعجم اليمامة ١/ ١٨٥ - ١٨٦.

١٢ - في هامش إحدى نسخ معجم ياقوت - كما ذكر ذلك المحقق لكتابه -: إنما يقال هذا في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الفراء: نصل يثربي وأتربي، منسوب إلى يثرب، وإنما فتحوا الراء استيحاشاً لتوالي الكسرات، وأنشد: وأثربي سنخه مرصوف. . أي مشدود بالرصاف.

١٣ - نسب أبو عبيدة البيت للأشجعي، ولكن ابن منظور نسبه في اللسان لعلقمة.

١٤ - ذكر محقق معجم ما استعجم أن في إحدى النسخ: بثر: بالثاء المثلثة من فوق.

١٥ - معجم ما استعجم ١/ ١٣٨٨ - ١٣٨٩.

١٦ - انظر أيضًا الروض المعطار ص ٦١٦.

١٧ - معجم البلدان ٥/ ٤٩٢.

١٨ - معجم البلدان ٥/ ٤٣١.

١٩ - هذا الكلام في الجمهرة لابن دريد ١/ ١٢٤ - ١٢٥.

٢٠ - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ص ١١٣ - ١١٥، وانظر أيضا الجمهرة لابن دريد ١/ ١٩٤ وذكر إنكار ابن الكلبي ليثرب بالثاء المثلثة، لأن عرقوبًا عنده من العماليق.

وقال ابن دريد في الجمهرة ٣/ ٧٨: قال ابن الكلبي: عرقوب بن معيد أو معبد. . شك ابن الكلبي.

٢١ - فصل المقال ص ١١٥.

٢٢ - شمس العلوم ١/ ٢٢١.

٢٣ - جمهرة أنساب العرب ص ٢١٥ وقال ابن الكلبي في جمهرة النسب ١/ ٣٥٦: فمن بني عبشمس بن سعد بن زيد مناة: عرقوب بن معبد بن أسد بن شعيبة بن خوات بن عبشمس، الذي ذهب به المثل في المواعد.

قال هشام: حدثني أبي قال: ليس هذا بشيء، إنما عرقوب بن صخر رجل من الأمم الماضية من العماليق، ولا ينسب، فأما بنو سعد فيقولون هو منا والله أعلم.

٢٤- مراصد الاطلاع ٣/ ١٤٧٤ .
٢٥- مراصد الاطلاع ٣/ ١٤٧٥ .
٢٦- ثمار القلوب ص ١٣١ .
٢٧- الدرة الفاخرة ١/ ١٧٧ ، وفي أمثال الميداني ومستقصى الزمخشري: في الحوائج من زحل .
٢٨- الدرة الفاخرة ١/ ١٧٨ ، وأبيات سلامة بن جندل السعدي في ديوانه ص ٢١٤ - ٢١٥ ضمن الذيل بالأشعار المنسوبة إليه، وليست في أصول ديوانه المخطوطة، ونصها هكذا.

ألا هل أتى أفناء خندف وعيلان إذ ضم الخميسين يترب
جعلنا لهم ما بين كتلة روحة إلى حيث أوفى صوتيه مثقب
غداة تركنا في الغبار ابن جحدر صريعًا وأطراف العوالي تصبب

٢٩- معجم ما استعجم ٢/ ١٣٨٨ .
٣٠- معجم ما استعجم ٢/ ١٣٨٩ .
٣١- معجم ما استعجم ١/ ١٠٤ .
٣٢- تاج العروس ١/ ١٦٠ عن مراصد الاطلاع .
٣٣- مقاييس اللغة ١/ ٣٤٦ .
٣٤- هذا الاحتمال من كيسي، ومسوغه أن تلقية العرقوب لا تزال مأثورة في أمثالهم . وإنما أردت بهذا الاحتمال تبيان أن الاحتمال المرسل لا يعتد به في تحديد واقعة معينة .
٣٥- ديوان الراعي النميري ص ٨٥ إلا أنه بلفظ بيثرة، وفي معجم ما استعجم ١/ ١٠٦ أثبرة، وفي معجم البلدان ٥/ ٤٩٣ : يثربة . . ولم يحدد مكانها، وفي تاج العروس ٦/ ١٤٢ يثبرة .
٣٦- تاج العروس ٦/ ١٤٠ .
٣٧- ديوان ابن لجأ ص ٣٩ .
٣٨- ديوان ابن لجأ ص ٦٢ .
٣٩-انظر معجم معالم الحجاز ٦/ ٢٦٣ - ٢٦٧ .
٤٠- ديوان سلامة ص ٥٧ - ٥٨ [الملحق] .
وسؤوق من السوق وهو الجلب والإعطاء .
٤١-جدود شرق حزن بني يربوع .
٤٢- في شرح القائض : والمقاد . . قال أبو عبدالرحمن : وهو الصحيح .
٤٣-في الأصل : مسروع . . والتصحيح من شرح النقائض .
٤٤- كل روايات هذا الرجز مكسورة .

٤٥- زيادة من شرح النقائض.
٤٦- كتاب أيام العرب قبل الإسلام ص ص ٤٠٩ - ٤١٧، وانظر شرح نقائض جرير والفرزدق ١/ ٣١٤ - ٣١٩، والعقد الفريد ٦/ ٥٧ - ٥٩، ونهاية الأرب ١٥ - ٣٨٩ - ٣٩٠، وأيام العرب في الجاهلية ص ١٧٨ - ١٨١، ومعجم أسماء خيل العرب وفرسانها ص ٣٤٣-٣٤٤.
٤٧- انظر معجم المنطقة الشرقية ٤/ ١٣٨٧ - ١٣٩١، ووهم شيخنا حفظه الله ص ١٣٨٩ إذ جعل طلب قيس للحوفزان من القاعة إلى جدود، وإنما جاء الحوفزان من جدود إلى القاعة، وطلبه قيس فأدركه بالمقاد.
٤٨- المصدر السابق ٤/ ١٦٧٤.
٤٩- معجم البلدان ٥/ ٤٩٢.
٥٠- انظر معجم المنطقة الشرقية ٢/ ٨٣٦.
٥١- بلاد العرب ص ٣٤٣ - ٣٥١.
٥٢-بلاد العرب ص ٣٢٨ - ٣٢٩.
٥٣- بلاد العرب ص ٣٦٣ - ٣٦٤.
٥٤- المؤبل: المقتنى.
٥٥- آمة: عيب.
٥٦ - ديوان عبيد ص ١٣٧ - ١٣٨
والأشيقر الفرس يخرم أنفه بالزمام.